

عبد الرؤوف أرناؤوط*

معتز حجازي.. عاشق

القدس وشهيدها

يقول

إبراهيم حجازي أنه كان يعمل ضابط صيانة في

شركة للنفط في إمارة أبوظبي في

الإمارات العربية المتحدة عندما بلغته

الطبيبة البريطانية كليز أن أمامه أحد

خيارين: أن يخسر الجنين الذي كان في

أحشاء زوجته، أو أن يخسر زوجته، فاختار

الخيار الأول.

ولأن إسقاط الجنين كان ممنوعاً في

الإمارات العربية آنذاك، فقد أرسل زوجته إلى

الأردن حيث التقاها أحد أبناء العائلة الذي

كان يعمل في المدينة الطبية.

ويوضح إبراهيم في حديث خاص

لـ "مجلة الدراسات الفلسطينية" قائلاً:

"عندما علم بسبب قدوم زوجتي إلى الأردن

نظر إليها وقال: عودي إلى زوجك لأن هذا

الطفل سيكون أحسن أولادك وسيكون له

شأن عظيم."

عادت الأم إلى الإمارات، وعندما أصبحت

في شهرها الثالث اصطحبها زوجها إلى

القدس حيث بقيت حتى وضعت في مستشفى

المقاصد في المدينة في الثامن والعشرين من

نيسان / أبريل ١٩٨٢ الطفل معتز ليصبح

الثاني بين إخوته بعد خليل، قبل أن ينضم

إليهما عدي.

معتز الذي ترعرع لاحقاً في الإمارات

العربية المتحدة، "كان قصير القامة يحب

الألعاب البهلوانية، وكان الناس في كثير من

الأحيان يلتقطون الصور له في الحداثق وهو

يقفز عن الجدران وعلى الحبال، ومع تقدّمه

في العمر قليلاً أصبح طويلاً وأحب السباحة

فكان متميزاً فيها يقفز من المناطق العالية

في حمامات السباحة"، يقول والده مستذكراً

ما اعتبرها أجمل أيام حياته.

لم تدم إقامة العائلة في الإمارات العربية

المتحدة طويلاً، إذ اضطرت إلى العودة

إلى القدس. ففي كانون الأول / ديسمبر

١٩٩٥ شرع وزير الداخلية الإسرائيلي آنذاك

حاييم رامون، ومن دون سابق إنذار، في

تطبيق ما بات يُعرف بـ "مركز الحياة"، وهو

إجراء يمكّن وزير الداخلية من شطب إقامة

المقدسين الذين لا يتمكنون من إثبات

إقامتهم في مدينة القدس لسبعة أعوام.

واستناداً إلى معطيات "مركز المعلومات

الإسرائيلي لحقوق الإنسان في الأراضي

المحتلة" (بتسيلم)، فقد تم في سنة ١٩٩٦

* صحافي فلسطيني مقيم في القدس.



معترز حجازي مع والديه

هندسة الكهرباء في ألمانيا، وتمنى علي أن أساعده لثلاثة أشهر فقط يسافر خلالها إلى ألمانيا حيث يلتحق بأحد المعاهد، ثم يصبح في إمكانه تدبير أموره بنفسه، لكن أوضاعي المالية لم تكن تسمح بذلك مطلقاً.

كان معترز يعبر يومياً حاجز ضاحية البريد العسكري الإسرائيلي، للوصول إلى مدرسته في عطروت، لكن خروجه من القدس برفقة والده في سيارته لم يكن كدخول المدينة قط، وخصوصاً أنه لم يكن قد تسلم بعد هويته المقدسية من وزارة الداخلية الإسرائيلية.

بقي هذا الحاجز قائماً حتى سنة ٢٠٠٦، وجرت إزالته بعد بناء جدار الفصل العنصري، وتم الاكتفاء بحاجز قلندية العسكري الذي يُعتبر الممر الرئيسي حالياً بين رام الله والقدس.

يشرح الوالد الوضع قائلاً: "كان معترز يحمل إيصالاً من وزارة الداخلية الإسرائيلية بانتظار حصوله على الهوية (البطاقة الشخصية)، لكن هذا لم يكن كافياً للجنود الإسرائيليين الموجودين على الحاجز، والذين كانوا يعتفونه ويضايقونه ويوقفونه

شطب إقامات ٧٣٩ مقدسياً، وبلغت الذروة في سنة ١٩٩٧ حين سُطبت إقامات ١٠٦٧ مقدسياً، ثم في سنة ١٩٩٨ جرى شطب إقامات ٧٨٨ مقدسياً. وبالإجمال، فإن وزارة الداخلية الإسرائيلية شطبت إقامات ١٤,٢٦٨ مقدسياً في الفترة ١٩٦٧ - ٢٠١٢، وهذه السياسة لا تزال مستمرة حتى الآن. يقول إبراهيم: "خشيت على إقامتنا في القدس، ولذلك قدّمت في بداية سنة ١٩٩٦ استقالتي من عملي في الإمارات العربية المتحدة، وعدت مع أفراد عائلتي إلى هنا". في القدس، أعادت العائلة تنظيم حياتها، فالتحق معترز وأخواه خليل وعُدي بمدرسة شعفاط الثانوية، وتميز بدراسته كما برياضة الكاراتيه وقاتل الشوارع والشطرنج. وحتى ذلك الحين كان معترز يعيش حياته كباقي الشبان، لكن ليس بعد التحاقه بمدرسة القدس الصناعية أو ("دار اليتيم العربي") في منطقة عطروت الصناعية، شمالي القدس، والتي يفصلها عن منزله في حي الثوري، حاجز إسرائيلي. يقول والده: "كان معترز يرغب في دراسة



اكتظاظ داخل حاجز قلندية

يعايشونه من مضايقات في الشارع، نَمَى
لدى معتز الحس الوطني.
أنهى معتز دراسته في "دار اليتيم
العربي" متخصصاً بالكهرباء ليبدأ فصلاً
جديداً من حياته. فقد عمل مباشرة في شركة
إسرائيلية، لكن عمله لم يستمر أكثر من ثلاثة
أيام، ففي تلك الفترة كان ملتزماً دينياً
وليس سياسياً، وكان يؤدي الصلوات في
أوقاتها، الأمر الذي لم يرق لمشغله اليهودي
الذي استاء عندما علم أنه كان يؤدي صلاة
الظهر، فبادره مستفزاً: "هذا مكان عمل
وليس صلاة."
يقول إبراهيم مستذكراً جواب معتز: "أنا
أصلي لكن في أوقات الراحة، وليس في
إمكانك أن تمنعني من الصلاة، أو لأقل لك:
أنا لا أريد العمل عندك."
وبسبب قلة فرص العمل آنذاك، صار
إبراهيم يعمل موزعاً لصحيفة "معاريف"
الإسرائيلية في ساعات الفجر الأولى في
مناطق إسرائيلية، وغالباً ما كان ابنه خليل
ومعتز يرافقانه ويساعدانه.

قرب الجدار لساعات، فيصل إلى المنزل
متأخراً ويكون حزينا جداً.
ويقول شقيقه عُدي: "معتز كان أكثر من
يواجه بيننا مشكلة التوقيف على الحواجز
الإسرائيلية والمضايقة من طرف الجنود
الإسرائيليين، وهو أمر كان له التأثير الكبير
فيه."
وفي محاولة لتفادي هذه المضايقات،
اقترح عليه والده أن يتسجل في القسم
الداخلي في المدرسة، فوافق معتز، وأصبح
والده يجلبه من المدرسة بسيارته أيام
الخميس ويعيده إليها أيام السبت.
مجمل هذه الأحداث والاستفزات
التي كان يتعرض لها من جنود الجيش
الإسرائيلي صقلت الشخصية الوطنية لديه.
ويقول والده: "كانت الانتفاضة الثانية
قد بدأت، وكنت أعمل حينها مترجماً مع
الصحافة الأجنبية، ولذلك عندما كنت
أعود إلى المنزل وأقصّ على أفراد العائلة
مشاهداتي عن معاناة الناس، فضلاً عما
كانوا يشاهدونه على محطات التلفزة، وما

بضربك إذا لم أعترف، اعتقدت أنهم ضربوك فعلاً، فاضطرتت إلى الاعتراف كي أحميك." ويلفت إبراهيم إلى أن ابنه معتز كان يستخدم معرفته التقنية ويوقت زمن احتراق صناديق الكهرباء بعدما يكونون قد غادروا المكان، الأمر الذي جعله لا يصدق بداية أن ابنه هو من يقف خلف عمليات الحرق هذه. مكث إبراهيم يومين في السجن، بينما أمضى خليل ٤ أيام فيه، أما معتز فحكم عليه بالسجن ٦ أعوام زيدت إلى ١١ عاماً ونصف عام بعد اتهامه مرتين بمهاجمة سجنائين إسرائيليين؛ وبالإجمال فقد أمضى ١٠ أعوام في السجن، نصف عام منها في العزل.

يقول إبراهيم: "في السجن بدأت الاتجاهات الدينية عند معتز تشتد، وأصبح يتكلم بطريقة مختلفة. كان يقول إن في السجن مهندسين وأطباء ومعلمين، وأنه يدرس اللغة العبرية ويشارك في محاضرات بشكل يومي وبدأ يحفظ القرآن.. كان مرتاحاً."

بعد مرور تسعة أشهر على سجنه بدأ السجنانون ينقلونه من سجن إلى آخر. وفي سجن الرملة وضعوه في غرفة مبتلة لا فراش فيها، فبدأ يصرخ ويضرب على الجدران، لكن من دون استجابة، فمسح الأرض المبتلة بقميصه ونام القرفصاء في زاوية، وقرر الانتقام من سجنائه. يضيف والده: "في اليوم التالي هاجم معتز أحد السجنائين بأداة حادة وأصابه في وجهه، فانهال عليه باقي السجنائين بالضرب في جميع أنحاء جسده ونقلوه إلى العزل ومنعوا عنه الزيارة." ويتابع الأب قائلاً: "تكونت لديه حالة تمرد دائمة، لأنه بين الفترة والأخرى كان يتم تبليغنا بشكل مفاجئ بمنع الزيارة عنه، وعندما كنّا نتمكن من زيارته كان يقول لنا: حدثت

في تلك الفترة، انشغل جهاز الاستخبارات الإسرائيلي "الشاباك" باستقصاء أسباب عمليات إحراق خزائن كهرباء في عمارات إسرائيلية، كانت تسبب الذعر للإسرائيليين القاطنين في تلك العمارات، ولا سيما أنها تحدث في ساعات الفجر، ولم تكن تتسبب بإصابات بشرية.

في الساعة الخامسة والنصف من صباح أحد الأيام طوقت قوة من الاستخبارات والجيش الإسرائيلي سيارة إبراهيم وأجبرته هو وولده خليل ومعتز على النزول منها. حتى ذلك الحين كانت ٧ عمليات مشابهة قد وقعت في مناطق يمر منها إبراهيم لتوزيع الصحف، لكن الحرائق كانت دائماً تحدث بعد عدة دقائق من مروره بها. يشرح إبراهيم كيف حدث الأمر، ويقول: "طلبوا منا النزول من السيارة، وكان بعضهم يشير بإصبعه نحوي والبعض الآخر في اتجاه معتز ويقولون: هذا هو!! ولم أكن أعلم عما يتحدثون، وكلما استفسرت كانوا يطلبون مني أن أصمت، إلى أن سألوا كل واحد منا عن دراسته، وعندما أخبرهم معتز أنه درس الكهرباء، أخذوه معهم، وأنا لحقت بهم إلى مركز للشرطة."

اختلى عناصر الاستخبارات الإسرائيلية بمعتز في إحدى الغرف وأبقوا والده إبراهيم وشقيقه خليل في الخارج، لكنهم كانوا ينقلونهما من زاوية إلى أخرى. ويقول إبراهيم: "في لحظة ما فاجأني أحد الجنود بدفعي بقوة نحو الحائط، فصرخت في وجهه بصوت عال مستنكراً هذا العمل غير المبرر." وبعد طول انتظار خرج المحققون وبلغوه أن معتز اعترف بتنفيذ عمليات الحريق، لكنه لم يصدق حتى سمع ذلك من ابنه معتز نفسه. يقول إبراهيم: "كان حينذاك في الثامنة عشرة من عمره، قال لي: يا أبي عندما سمعتك تصرخ وكانوا حينها يهددونني

مشاكل، لكن فعلياً كنت متأكداً من أنه كان يُعاقب."

قررت المحكمة إضافة حكم بالسجن على معتز لثلاثة أعوام ونصف عام إضافية، وذلك بعد مهاجمة السجان وإصابته في وجهه. وتكرر الأمر مع سجان آخر كان يعتمد مضايقته بشد أغلاله في أثناء نقله من سجن إلى آخر، فهاجمه معتز بالأغلال نفسها ليصيبه في رقبته، الأمر الذي أدى إلى الحكم عليه بالسجن عامين إضافيين أيضاً. لكن معتز المتمرد على السجان، كان له وجه آخر مع المعتقلين الآخرين في السجن، وحتى مع الحيوانات في محيط السجن. يقول شقيقه عدي: "كان المعتقلون يلقبونه بأبو هُريرة، لأنه كان يهتم بالطيور والحيوانات التي تقف على نافذة السجن، فكان يُطعم العصافير والقطط، حتى الفئران كان أحياناً يطعمها."

ولم يقتصر الأمر على إطعام العصافير والقطط والفئران، بل إنه علّم نفسه أيضاً إعداد الطعام بما يجد من مواد أولية. ويضيف عدي: "في إحدى المرات أعد البيتزا داخل السجن للمعتقلين معه على الرغم من محدودية الموارد، وما زلت حتى الآن لا أستوعب كيف تمكّن من ذلك، كما أن المعتقلين الذين كانوا معه تفاجأوا من نجاحه في إعداد البيتزا."

ولمعتز أسلوبه في معاقبة السجانين من دون أن يهاجمهم. يقول والده وهو يضحك: "كان غاضباً على إدارة السجن لعدم استجابتها لمطالب المعتقلين بتحسين أوضاعهم، فقرر أن يعاقبها، وهكذا، عندما قامت لجنة مراقبة بجولة في السجن للتدقيق في أوضاع المعتقلين، دفع معتز بفأر صغير بين أرجل أعضاء اللجنة ففروا هاربين، وعاقبته إدارة السجن على فعلته هذه."

لم يصنّف معتز نفسه على أي تنظيم خلال اعتقاله، لكن والده يشير إلى أنه في فترة ما اختار أن يكون في قسم "الجهاد الإسلامي" في السجن، ويقول: "كان أكثر ما يحزنه في السجن هو الخلافات بين التنظيمات، وكان يسعى دائماً جاهداً لمنع تفاقم الخلافات وذلك بطرح القضايا للنقاش المعمق، الأمر الذي جعل كل من في السجن، بغض النظر عن توجهاتهم، يحبونه ويحترمونه."

ويضيف: "تمكّن معتز من التأقلم مع العزل الانفرادي وكان، كما عرفنا من المعتقلين الآخرين، قدوة في تحمّل العزل. كان يبث في نفوس المعتقلين الجدد الشجاعة عندما يأتون إلى العزل، فيرفع من معنوياتهم ويهون عليهم المعاناة التي يمرون فيها."

ولكن تأثيرات جدران السجن رافقته إلى الخارج، فقد عانى لثلاثة أشهر بعد الإفراج عنه مشكلة في التركيز، الأمر الذي اضطر والده، على الرغم من الأوضاع المادية الشديدة الصعوبة، إلى أن يأخذ إجازة من عمله للبقاء إلى جانبه نهائياً، والنوم بالقرب منه ليلاً. ويوضح إبراهيم: "كان خجولاً جداً، وكان ينسى في بعض الأحيان أين وضع أغراضه، لكننا تجاوزنا هذه المشكلة بصناعة صندوق خشبي كان يضع فيه أغراضه، وكذلك الإحراج الذي كان يشعر به أحياناً جرّاء هذا الأمر."

كان معتز سعيداً بين أهله، لا تفارق البسمة وجهه، وكان طباحاً ماهراً أيضاً، ولا سيما في إعداد الحلويات. يقول عدي: "كانت فترات أعياد الفطر والأضحى من أجمل الأوقات، كنّا نخرج سوياً للتنزه، وكان عندما يصنع الحلويات الشهية، يجعل النساء، بسبب مهارته، يسألنه عن كيفية إعدادها، فكان يشرح لهن الوصفات."



جنود إسرائيليون في باحة الحرم القدسي الشريف

دخول المسجد، كان يعود إلى البيت حزيناً ويرفض تناول طعام الغداء ويذهب إلى غرفته للنوم، فكنت أواسيه وأقول له: ماذا بك؟ فكان يردّ بحزن: لقد ذهبت للصلاة ومنعوني من الدخول، فأقول له: ما دمت قد ذهبت وحاولت الدخول ومُنعت فإن الثواب عند الله فلا تحزن.

في ذلك الوقت كانت الشرطة الإسرائيلية تمنع الشبان الفلسطينيين من الدخول إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة، في الوقت الذي تسهّل اقتحامات المستوطنين الإسرائيليين للمسجد.

وتقول الشرطة الإسرائيلية إنه في ٢٩ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٤، اقترب معتز من عراب الاقتحامات الإسرائيلية للمسجد الأقصى الحاخام يهودا غليك، في أثناء خروج الأخير من مؤتمري في القدس الغربية تم تنظيمه لإقامة الهيكل المزعوم على أنقاض المسجد الأقصى، وقال له: أنت يهودا غليك؟ فأجابه نعم، فقال له: آسف، لكنني أحب الأقصى وأنت اضطررتني إلى ذلك،

ويضيف: "كان يحرص على زيارة الأسرى عند الإفراج عنهم، سواء أكانوا في الضفة الغربية أو في القدس."

لكن معتز ترك أيضاً أسراراً خاصة به لم يعلم بها أفراد عائلته إلا بعد استشهاد. يقول والده: "كان قد تكفل يتيماً لا نعلم حتى الآن هويته، كما علمنا أنه كان يقوم كل شهر أو شهرين بالتوجه إلى مدينة الخليل فيشتري مواد تموينية ويوزعها على المحتاجين."

لقد حاول معتز أن يعيش حياة طبيعية، فالتحق بدورات في الكهرباء، وأصدرت الشهادة المصدقة من شركة كهرباء القدس بعد ١٨ يوماً من استشهاد. وتعلّم قيادة الدراجات النارية من أجل القيام بأعمال صيانة الكهرباء برفقة شقيقه عدي.

لكنه في الأيام الأخيرة قبل استشهاد كان غاضباً جداً من منعه من أداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى. يقول والده: "في أيام الجمع، وعندما تمنع الشرطة الإسرائيلية المصلين دون سن الـ ٤٥ من

هاتفياً، وقال له، بحسب رواية الوالد: "صباح الخير يا أبي، هل يمكنك أن تمر عليّ في المنزل؟ قلت: إنني ذاهب إلى العمل، لكن عُدي سيمر عليك." ويضيف: "في طريقي إلى العمل كان هاتفني النقال يرن باستمرار، ولم أكن أستطيع الرد لأنني كنت أقود السيارة، لكن عندما تمكنت من الوقوف كان عُدي على الطرف الآخر يقول: تعال يا أبي فوراً إلى المنزل، هناك كثير من الجنود في المكان." كان عُدي قد وصل إلى المنزل قبل إحاطته بالجنود، وقال: تحدثت مع معتز بشكل عادي ثم سمعنا أصواتاً، فقال إن هناك جنوداً في المنطقة، فنزلت إلى مدخل المنزل كي أستفسر، وإذ بالجنود يوجهون أسلحتهم نحوي ويطلبون مني الجلوس على الأرض، ولاحقاً سمعت صوت زخات من الرصاص ولم أفهم ما الذي يجري." دخل إبراهيم إلى المنزل بعد جهد كبير، واستفسر عن معتز من دون أن يتلقى إجابة من الجنود الإسرائيليين. ويقول: "لاحقاً علمت أن معتز صعد إلى سطح المنزل فأطلق



غليك ويبدو خلفه المسجد الأقصى

وأطلق عليه النار ليصيبه بجروح خطيرة. وغليك الذي نجا لا يزال يمتنع حتى الآن من اقتحام المسجد الأقصى، كما كان يفعل قبل أن يحاول معتز قتله.

أمضى معتز ليلته في منزل العائلة في حي الثوري في القدس الشرقية، بينما بات والده وشقيقه في منزل في بلدة العيزرية، شرق القدس.

وفي الساعة الخامسة وعشر دقائق من صباح اليوم التالي اتصل معتز بوالده



...وعلى الكرسي المدولب



معتز شهيداً بعدما قتله الجنود الإسرائيليون

غليك، ولم تثبت أيضاً أنه كان يشكل خطراً
على حياة أفرادها عندما دهمت منزله
الذي أصدر قائد الجبهة الداخلية في الجيش
الإسرائيلي، مستنداً إلى قانون الطوارئ
الصادر في إبان الانتداب البريطاني
لفلسطين، أمراً بهدمه... وبقي حتى الآن
فارغاً بانتظار مصيره. ■

عليه القناصة النار من سطح منزل مجاور
وأصابوه في رجله، ثم، كما يؤكد تقرير
الطبيب الشرعي، أطلق الجنود عليه ٢٢
رصاصة على أنحاء جسده، وتركوه ينزف
حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.
لم تثبت الشرطة الإسرائيلية ما إذا كان
معتز قد أطلق النار فعلاً على الحاخام

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

فلسطين

دروس الماضي وتحديات الحاضر

واستراتيجيات المستقبل

١- فلسطين والفلسطينيون

تحرير

جميل هلال

١٢ دولاراً

١٧٧ صفحة